هوتيل كاليفورنيا
«ديجافو»

1

زجاجات البيرة الفارغة وسط علب السجائر المتناثرة، والطفايات الممتلئة. الدخان الساكن مكانه، وخيالات مهتَّزة لأناسٍ رحلوا منذ ساعات، ونسوا ظلالهم هنا. واللحن المميز المحبب يدوِّي فوق الرؤوس. أطباق ممتلئة بالجبن وبعض الخس والترمس. تهمس لي: (ترمس؟) أعلم أنها تكرهه، فأبتسم، وأنا أزيحه بعيدًا.

أتناول آخر جرعة من زجاجتي. من قال إن الكثير من البيرة يُسكر؟

هي تجلو الذهن. ترسلك في مكان بعيد وحدك. تجلس فيه لترقب الناس من خلف حاجز سميك. تبني حولك جدارًا، لا يخترقه سوى من أردت أنت. تهمس لي من جديد: (روحت فين؟) فأنظر لها وأبتسم. أقترب بمقعدي منها أكثر، أتناول من أصابعها السيجارة المتآكلة، أضع فمي مكان فمها وأسحب نفسًا كبيرًا، أمدُّ يدي أتحسس شعرها شبه المتناثر، أضمُ رأسها من الخلف، أريحه ببطء على كتفي. تغمض عينيها، فأقترب بوجهي منها وأقبِّلُها على خدِّها الممتدِّ أمام عيني؛ تنتفض. فأنتفض. تقول لي: (مش هشرب معاك تاني).

أبتسم وأنا أتناول الزجاجة من أمامي لأشرب منها. كنتُ أعتقد أنها انتهتْ منذ قليل، وكنتُ أهمُّ بطلب واحدة أخرى. من الجيد أني لم أطلب؛ فالمثانة ممتلئة عن آخرها ولا أريد الذهاب للحمام وتركها هنا وحدها. المكان غريب بالنسبة لها.

كانتْ خائفةً قليلًا قبل المجيء، لكني عندما أخبرتها باسم المكان ابتسمتْ ووافقتْ. قالتْ لي: (لو أنت اللي كنت هاتسمي المكان، مكنتش هاتختار اسم تاني)، فأبتسم من جديد. لم أفعل شيئًا منذ قدومي سوى الابتسام الأبله، حاولتُ التكلم؛ لكني صمتُّ. حاولتُ تذكر صوتي، فلم أفلح. نسيته، ولو سمعته الآن فلن أعرف بأنَّ هذا هو صوتي. أحتاج من أحد أن ينطق بصوتي حتى أعرفه من جديد. أن يشير لي أحدهم ويقول (هذا صوتُك) فأعرف بأن هذا صوتي وأستعيده.

هواء البحر يأتي متسللًا من النافذة البعيدة شبه المفتوحة. فكرتُ بأن

آخذهـا ونهبط لنمشي على البحر كما وعدتهـا. فأغمض عيني ليأتي البحر حولنا. ممتزجًا باللحن المتصاعد الممتد منذ قدومنا.

تفتح حقيبتها وتخرج محمولها. تنظر في الساعة وتندهش. تسألني: (هو إحنـا جينا السـاعة كام؟) فأهزُّ رأسي غير عالم. تواصـل كلامها بصوتها المبحوح، وهي تنفخ الدُّخان في وجهي: (إحنا بقينا بكره.. أحيه).

تسـحب زجاجتي وتشرب منها آخر ما بقي بها. (أنا كدا مش هدخل البيت) تنتفـض فجأةً وهي تفتح حقيبتها من جديد، تبحث فيها بعصبية قبـل أن تلقيها بعيـدًا وتقول: (ومش معايا الباسـبور بتاعي.. يعني مش هاينفع حتى أسافر معاك).

أحاول طمأنتها لكني أواصل التقوقع، أمسك كفَّها الصغير فتتركه لي. تقترب مني، فأشمُّ عطرها الخافت. تقول: (مش لازم أسافر بالباسبور؟ صـح؟ ممكن بالبطاقة بتاعتي.. عادي، مش كدا؟) فأهزُّ رأسي مشـجعًا. فتبتسم وتسكن حركتُها القلقة.

أضمُّها من جديد، فتترك رأسها على كتفي، وشعرها المنسدل يرسلني لعالم بلا أرض. لا شيء سوانا هناك، ومعنا أغنيتنا التي لا تنتهي. أمدُّ يدي للزجاجة فأجدها ممتلئة إلا قليلًا. من الجيد أني لم أطلب واحدة جديدة.

(حكايـات كثيرة عن ظاهـرة الديجافو؛ منها التفسـير العلمي الجامد عـن أن الدماء تصل لنصف المخ الأيمن قبـل الأيسر، فتتكرر الصورة في المخ، فنشـعر بأننا رأينا ما رأيناه من قبل. لكن هناك تفسـير آخر. بأن هذا

انعكاس لحياة سـابقة في نفس الأماكن، وربَّما مع نفس الأشخاص، وربَّما لنفس الموقف. أحيانًا تشـعر وأنت تتكلم بأنَّ ما ستقوله قد قلته من قبل. وهو ما يلغي التفسير العلمي؛ لأنَّ الدماء لم تصل لنصف المخ بعد ما قيل، ولكن قبـل أن يُقال. أحيانًا تدخل لأماكن وقبل أن تدخلها تشـعر بأنَّك كنت هنا من قبل. ربَّما تصف المكان قبل أن تراه. وهو ما يسبب لك حيرة. كيف فعلت هذا؟ ربَّما تسمع أغنية تشعر بأنَّكَ قد سمعتَها من قبلُ مئات المرَّات. تمسُّ روحكَ، ولحنها يمتزج بذراتك. الأكثر حيرة من هذا يكون مع الأشخاص؛ أرواحكما التي تعرف بعضها قبل أن تتكلما. وتسعد ما أن ترى الآخر؛ سـعادة وفرحة وتحليق تشعر بهما في روحك مع هذ الشخص الذي لم تعرفه من قبل.

تختلط حالة الديجافو مع حالة الحلم. بعض الأحلام تشـعر بها حقيقية أكثر من اللازم. الأصوات والطعم والرائحة. حالة الإشباع التي تحتويك بعد الاستيقاظ لا تفسير مريح لها. ربَّما هو انعكاس لموقف حقيقي قد عشتَهُ من قبل وظلَّ مختبئًا داخلك. لم يُمحَ، أو يَزُلْ. وظهر جليًا في هذ الحلم كأنَّه استدعاءٌ لشيء قديم قد مررت به من قبل).

2

الأمطـار العاتية الثقيلة. كانت أمامـي تبدو حزينة، مرهقة. تحاول أن ترحل فأتمسـك ببعض دفئها المنساب. أداري السـيجارة المشتعلة داخل

كفي. والمياه تنساب حولها محاولة إطفاءها. قطار الضواحي يلوح من بعيد. المحطة خالية، ونصف مظلمة.

أحاول تذكر ما كنتُ أنوي إخبارها به، فلا أستطيع. فقط أواصل الاقتراب من هالتها الخافتة تحت المطر، فتواصل تراجعها للخلف. فأستمر في اقترابي ومحاولة تذكر ما كنتُ أريد قوله. كنتُ أريد طمأنتها، وإخبارها بأنِّي موجود. تستطيع إلقاء ما تريد على كتفي ببساطة.

تتكلم؛ لكن حضورها الطاغي يجعلني لا أسمع، أو أسمع ولا أعي. تعيد التطلع حولها باحثة عن مكان لتقي نفسها من المطر؛ لكن صوت القطار القادم يدفعها للانتظار تحت الماء المنهمر. تمدُّ يدها صامتة بولاعة بيضاء صغيرة، أتناولها منها بآلية، ولا أنطق. أنظر فيها محاولًا تذكر إن كانتْ تخصُّني أم لا! بالتأكيد أفسدها المطر. حاولتُ النطق لكني فشلت. أشعر بلهب السيجارة في باطن يدي شبه المغلقة؛ كيف لم تُبلل وتنطفئ؟!

تبحث في جيوبها بعصبية، ثم تخرج منها ولاعة بيضاء صغيرة. تمدُّ لي يدها، فأتناولها منها بصمت. شعرتُ بأنَّ المشهد مكرر، بحثتُ عن الولاعة الأولى التي تناولتها منها لتوي فلم أجدها. ربَّما لم يكن هناك ولاعة أولى. وأنا أتخيل: دي جا فو تحت المطر. ابتسمتُ بركن فمي. فابتسمتْ هي أيضًا كأنَّها فهمتْ ما فكرتُ فيه. يقترب القطار، فتدنو هي من حافة الرصيف.

(تقول الأسطورة بأنَّ الولاعة الجيدة هي التي تشتعل في المرة الثانية، لا الأولى. يجب أن تسمع تكتها مرتين قبل أن يتراقص لهبها، لذلك عند

شرائـك لولاعة يجب أن تجربها أولًا؛ إن اشـتعلتْ في المرة الأولى، لتعطها فرصـة أخـرى. وتحاول معها مـن جديد، يجب أن تخفق مـرة، وتنجح في الثانية، إن فعلتَ هذا لتأخذها، وإن كان يوم سـعدك، ستلمح الولاعة في المحلِّ القديم، ستشعر بأنَّها هي. سيلفتُ نظرك لونها الهادئ المريح. ستشير للرجل إليها. سـيتناولها، ويقوم بمسحها في صدره بحنان، يناولك إياها، ستمسـكها وتقلبها في يدك. ثم... تك.. تـك ليخرج لك لهبها متراقصًا. سـتدفع فيها للرجل ما يطلبه، لن تناقشـه، ولن تناوله إياها ثانية ليضعها لك في علبتها. سـتظلُّ ممسكًا بها، ولن تتركها ثانية قط).

3

لم تمطر اليوم، اكتفتْ بأمطار الأيام السـابقة. لكنَّ البرد كان شـديدًا. تلفُّ وشـاحها الجميل حول عنقها، تضع حقيبتها بلا مبالاة على المنضدة الصغيرة، تبتسم ابتسامتها المشرقة وهي تجلس، تمدُّ يدها لتخلع عن عنقي وشاحي الأسود الطويل؛ (كدا هاتبرد).

أبتسـم فتبتسم وهي تتمسك بوشـاحها الملون. (طب وانتي؟). فتهز رأسها بدلال وتقول (تؤ). تتناول من أمامي زجاجتي، وتتناول منها رشفة سريعـة قبل أن تبعدها (سـاقعة)، فأواصل الابتسـام. تطلب فنجان من القهوة؛ على الرغم من عدم حبِّها للقهوة. تخرج علبة سـجائرها، وتشعل منها واحدة بولاعتها البيضاء الأنيقة.

كان المكان عبقًا بالدخان، خافت الضوء، هادئًا وخاليًا كأنَّه خُلق لنا. حولنـا تدوِّى خافتة الأغنية التي لا تنتهـي. تحكي قصة فندق قديم؛ ربَّما لا وجود له.

أنظر من النافذة جانبها فألمح القمر الكبير، بين السحب الداكنة المتقطعة. أهمس لها (ليلة مذءوبين) فتنظر وتفتح فمها الصغير الجميل كأنَّها تهمُّ بعضي، فأكشف لها رقبتي مستسلمًا، وأنا أغمض عينيّ. أفتحها ثانية فأجدها غير موجـودة. المنضدة خالية ولا أثر لها، أتطلـع حولي. المكان هادئ وخالٍ. ولا وجود لها.

كانت تمطر. زخات المطر تضرب زجاج النافذة المغلقة جانبي. المكان دافئ وخافت الإضاءة. واللحن يسحبني لسماوات بعيدة. أطفئ سيجارتي وأنا أتناول واحدة جديدة لأشعلها. بدأتُ في شرب الزجاجة الثانية. أفاجئ بها أمام المنضدة تبتسم. تضع حقيبتها، وتجلس. تخلع وشاحها، فتبدو رقبتها الطويلـة ممتدة لأعلى. تأملتُهـا قليلًا مُبتلعًا أفكارًا عنهـا. كأنَّها لاحظتْ، فمدَّتْ يدها تعدِّلُ ياقة قميصها شـبه المفتوح. ضممتُ وشاحي الأسود حول عنقي.

تنظـر من النافذة تلمـح البدر الكبير، تقترب منـي فأغرق في عطرها المتصاعد، تهمس بصوت مبحوح (ليلة مذءوبين).

تواصل اقترابها مني، تدنو من رقبتي، تفتح فمها قليلًا كأنَّها تهمُّ بعضِّي فأغرق في دوامة عطرها وهالة شعرها المنسدل أمام عينيّ. أغمضهما مستسلمًا

لها، متمنيًا أن تقوم بعضي بالفعل. أشعر فجأة بهواء بارد يضرب وجهي، فأفتح عينيّ؛ لأجد أنها ليستْ موجودة. النافذة نصف مفتوحة، والزجاجة الثانية شبه فارغة، وعلى فوهتها أثر خفيف لطلاء شفتيها الوردي المثير. أتناول الزجاجة وأضع فمي عليها من أعلى، أحس بطعم شفتيها، أغمض عيني لأذوب.

توقف المطر منذ قليل، تبقَّتْ بعض القطرات عالقة بالهواء، يجلبها ويدخل من النافذة غير المغلقة جيدًا جانبي. رائحة المطر، والكهرباء الخفيَّة التي تظلُّ بالجوِّ بعد توقف الأمطار. فكَّرتُ بأنها تأخرَتْ. كانتْ الإضاءة خافتة، وموسيقى بعيدة مألوفة لا تُسمع تنبض في المكان. وجدتُها أمامي فجأة تبتسم بدفء، وتجلس بجواري مباشرة. عطرها يختلط برائحة المطر المتسربة من الخارج. تقترب من أذني لتهمس: (وحشتني). أمسكتُ كفَّها الصغير، كان دافئًا. رفعتُه أمام وجهي وقبلتُه.

(ليلة مذءوبين)؛ قالتْ وهي تنظر من النافذة جانبنا للقمر الكبير بين الغيوم. ابتسمتْ وهي تفتح فمها وتقترب من رقبتي. لامستْ شفتاها شحمة أذني. همستْ: (أعضك) فهززتُ رأسي وأنا أغمض عيني، شعرتُ بعطرها يتسرب، فكرتُ أنَّها قد تكون ابتعدتْ. ظللتُ مغمضًا قليلًا. قبل أن أفتح عيني؛ لكنَّها لم تكن هناك، كان حول عنقي وشاحها الملون، ويفوح منه ببطء عطرها المبتعد. ضممته حول رقبتي جيدًا. وأنا أبحث عن وشاحي الأسود؛ لكنه اختفى.

تطلعتُ حولي؛ لأطلب الحساب. لكن الرجل ذو البذلة السوداء الأنيقة يقـترب مني، ليخبرني بأنَّ هذا المـكان معدٌّ فقط للدخول ولا رحيل منه. أتنبـه للأغنيـة التي تعلو حولي، أتطلع في المـكان لأتأكد من رحيلها -إن كانتْ موجـودة حقًّا- فلا أجدها. أنظر للرجل ثانية وأبتسم.